الإثنوغرافيا على الإنترنت
السبيل لفهم المجتمعات الافتراضية

Internet Ethnography
The Way to Understand Virtual Communities

زينب خلالفة*[1]،

[1] جامعة أم البواقي (الجزائر)، zineb.khelalfa@univ-oeb.dz

تاريخ الاستلام: 2022/09/29 تاريخ القبول: 2022/10/23 تاريخ النشر: 2022/12./13

ملخص:

يسعى هذا المقال إلى تسليط الضوء على المقاربات الكيفية في دراسة المجتمعات الافتراضية، وتحديدا الإثنوغرافيا على الإنترنت كتوجه بحثي جديد، مكيف ومطور للإثنوغرافيا التقليدية، من خلال تبيان أنواعها وطرق ممارستها، والحاجة الملحة لوجودها لملاءمة أساليبها للممارسات الاتصالية والثقافية لمجتمعات الإنترنت.

كلمات مفتاحية: الإثنوغرافيا، الإثنوغرافيا على الإنترنت، المجتمعات الافتراضية.

Abstract:

This article seeks to shed light on qualitative approaches in the study of virtual societies, specifically internet ethnography, as a new research direction, adapted and developed for traditional ethnography, by clarifying its types and methods of practice, and the urgent need for its existence to adapt its methods to the communicative and cultural practices of Internet societies.

Keywords: Ethnography; internet ethnography; virtual communities.

* المؤلف المرسل: زينب خلالفة

مقدمة:

لقد صاحب تطور الإنترنت وزيادة توغلها في الحياة الاجتماعية للأفراد، وكذا تطور تطبيقاتها وما رافقها من زيادة استخدام الوسائط المتعددة وشبكات التواصل الاجتماعي، ظهور البيئات عبر الإنترنت حيث يجتمع ملايين الأشخاص في مجتمعات افتراضية للتفاعل والتعاون والمشاركة وتبادل المعلومات. وقد أدى ظهور هذه المجتمعات إلى تغيير أنماط المشاركة الفردية والاتصال بشكل كبير، ولم يعد كافيا النظر إلى الأنشطة الفردية أو الجماعية الصغيرة في العالم الحقيقي، حيث أصبح العديد من الأفراد يقومون بالتصفح والبحث والتواصل والتعاون داخل الشبكات الاجتماعية الديناميكية عبر الإنترنت. هذا الأمر تطلب توسيع نطاق الدراسات من العلاقات الإنسانية التقليدية في العالم الحقيقي إلى العالم الافتراضي، وذلك من أجل فهم أفضل للسلوك البشري وللممارسات الاتصالية. وقد أصبحت البحوث والدراسات الإثنوغرافية من البدائل المناسبة لدراسة هذه الأخيرة، كما أنها تشكل مقاربة يمكن من خلالها تجاوز بعض مشاكل وعقبات البحوث خاصة الكمية منها، هذا من جهة. ومن جهة أخرى وفرت الإنترنت البيئة الخصبة لإجراء البحوث الإثنوغرافية، من خلال الإعدادات الجديدة والمصادر الغنية بالمعلومات. وعليه يسعى هذا المقال لتوضيح كيف يمكن أن تكون الإثنوغرافيا على الإنترنت المقاربة النوعية لدراسة المجتمعات الافتراضية، كما يوضح كيفيات تطبيقها وممارستها، من خلال تبيان الأفاق التي يمكن أن تفتحها كممارسة بحثية بديلة، وذلك من خلال طرح مجموعة من الأسئلة: ما هي الإثنوغرافيا على الانترنت؟ كيف يمكن ممارستها؟ ما هي الآفاق التي يمكن أن توفرها لدراسة المجتمعات الافتراضية؟

1. الإثنوغر افيا على الإنترنت

علم الأعراق البشرية السيبراني هو إضافة حديثة لأدواتنا البحثية الموجودة ضمن النموذج التفسيري مع جذورها في "الإثنوغرافيا"، كجزء من العلوم الاجتماعية وتحديدا فرع الأنثروبولوجيا، ينصب تركيزه على دراسة البشرية والثقافات. فلقد فوجئ التقليديون برؤية الإثنوغرافيا تستخدم بهذه الطريقة، ذلك أنها كانت قابلة للتكيف واستكشفت عددا لا يحصى من الروابط الثقافية، على الرغم من نسيان هذه الحقيقة في كثير من الأحيان من

قبل علماء الإثنوغرافيا الحديثين الذين يستنكرون استخدامها لدراسة العالم الافتراضي. (Browne, 2011, p. 1)

فالإثنوغرافيا على الإنترنت هي منهج نوعي يستعمل لجمع البيانات في المجتمعات الافتراضية، عادة ما يكون هدفها هو النظر إلى ما هو أبعد، ومحاولة كشف الأسباب الأعمق للسلوكيات أو المشاعر.

وفي محاولة العثور على إجابات للسؤال "لماذا الإثنوغرافيا عبر الإنترنت ؟" يجب أن نقر أن هذا الاستخدام غالبا ما يقع في مجتمعات خاصة ومع تقنيات اتصال خاصة.

يقول جونز (2005) "يمكن لدراسات الإنترنت أن تصف وتتدخل في حياة وقيم الأفراد الذين يستخدمون الإنترنت، وهذا يمكن أن يكون مفهوما بشكل أفضل - بغض النظر عن البعد الزمني- من خلال الملاحظة الدقيقة والتحليل لأشخاص وتقنيات محددين في أماكن وأوقات محددة ". (Skageby, 2011, p. 411)

في دراسات الإعلام ، لم تصبح الإثنوغرافيا طريقة مركزية بعد، ولكنها استخدمت في كثير من الحالات لتوفير فهم للعلاقة بين التكنولوجيا والإنسان . لقد أدى تطور الإنترنت في العقود القليلة الماضية إلى بدء مناقشات حول النوع الفرعي للإثنوغرافيا: الإثنوغرافيا عبر الإنترنت أو الإثنوغرافيا الرقمية أو الإثنوغرافيا الافتراضية. يعتمد هذا النوع الفرعي من الإثنوغرافيا على الموقف التأملي الذي يسمح بملاحظات حول كيفية بناء وإعادة بناء وصنع الأفراد للمعاني. وفي هذه الحالة ؛ الإنترنت والفضاء السيبيراني. (Thi, 2016, p. 44)

لقد أشار Hallett and Barber مؤخرا أنه "لم يعد من الممكن تخيل إجراء الإثنوغرافيا دون التفكير في الفضاء عبر الإنترنت". فالإثنوغرافيا ككل تشهد إعادة هيكلة منهجية، حيث أصبحت الإثنوغرافيا المستندة إلى الإنترنت - بشكل متزايد- طريقة بحث شائعة في مجموعة واسعة من التخصصات. بشكل عام فإن الإثنوغرافيا عبر الإنترنت "تنقل التقليد الإثنوغرافي للباحث كأداة بحث مجسدة، إلى الفضاءات الاجتماعية للإنترنت". (Airoldi, 2018, p. 1)

وتمثل الإثنوغرافيا على الإنترنت (السيبرانية) كمنهج بحثي خطوة لإعادة صياغة المفاهيم التقليدية، تحديدا مفهوم "المجال" كما اعتمده الإثنوغرافيون وأخذه إلى مستوى خاص آخر. ففي الفضاء السيبراني حدود المجال الملاحظ افتراضية وخالية من التموقع في

المكان أو الجغرافيا على حد سواء. فكلما مارس الأفراد المزيد من الأنشطة عبر الإنترنت وتركوا مسارات رقمية (صور، مدونات، رسائل بريد إلكتروني)، تمكن الباحثون من دراسة السلوك الإنساني في الفضاء السيبراني. فيقوم علماء الإثنوغرافيا السيبرانيون بالمشاركة في المدونات ومواقع الويب و غرف الدردشة ومراقبتها، ويحللون كيف يشكل الأفراد الشبكات الاجتماعية أو المجموعات عبر الإنترنت، ويقومون بإنشاء هوية ثقافية. (Browne, 2011, p. 1)

فمن نواح كثيرة، الإثنوغرافيا عبر الإنترنت ليست شديدة الاختلاف عن الإثنوغرافيا التقليدية. ففي الواقع، تم وصف الإثنوغرافيا عبر الإنترنت بأنها "إثنوغرافيا تقليدية" تتكيف مع دراسة المجتمعات الافتراضية. (Skageby, 2011, p. 411)

تنطوي الإثنوغرافيا على الإنترنت كمنهج بحثي على الانغماس في الثقافة الافتراضية والملاحظة لمواقع الويب التفاعلية و المجتمعات الافتراضية عندما يتم تداول ومناقشة القضايا المختلفة. فلقد عرفها موقع ويب متخصص في الإثنوغرافيا السيبرانية على أنها "دراسة التفاعل عبر الإنترنت ". ويقول "وارد" (1999) بأنها منهجية تم تطويرها حديثا، لديها الكثير لتقدمه، ولكنها تتطلب دعما من المناقشات الأكاديمية لتحقيق القبول الأكاديمي. (Browne, 2011, p. 1)

ويتكون الإجراء الإثنوغرافي عبر الإنترنت من عدد من الخطوات المختلفة تتمثل خاصة في المدخل الثقافي، جمع وتحليل البيانات، أيضا التأكد من أن التفسيرات جديرة بالثقة، إجراء أبحاث سليمة أخلاقيا، والتأكد من أن أعضاء البيئة المدروسة يمكنهم تقديم تغذية راجعة للبحث والباحث. (Skageby, 2011, p. 411)

فوفقا للعديد من وجهات النظر المعرفية والنظرية المختلفة، كانت الأساليب الإثنوغرافية تستخدم كاستراتيجية بحث لدراسة استخدامات الإنترنت والممارسات الاجتماعية عبرها، وكيف ينخرط الأفراد في علاقات شبكية، ومراعاة النظام الأخلاقي في أنشطتهم. (Elisenda Ardévol, p. 2)

تتمثل أدوات الدراسة الإثنوغرافية الافتراضية في المقابلات الإلكترونية مع المستخدمين المشاركين، أو الملاحظة بالمشاركة أو غير المشاركة، كما تجرى مقابلات جماعية

متعمقة باستخدام الرسائل المباشرة الفورية للرد على تساؤلات الإثنوغرافيين المشاركين، أو يتم تحليل البريد الإلكتروني والصور والرسوم ولغة الجسد ونبرة الصوت وتعبيرات الوجه، أو تحليل طرق استخدام المشاركين لكاميرات الويب أو الفيديو. (البدوي، 2015، صفحة 167)

وفي أبحاث الاتصال أدى التحول الثقافي إلى رفع مستوى الإثنوغرافيا كمنهجية مناسبة لدراسة ظروف إنتاج واستقبال واستهلاك وسائل الإعلام. حيث تسعى الإثنوغرافيا الإعلامية إلى تطوير فهم الجمهور النشط من خلال استكشاف قراءات النوع، وقضايا العرق والجنس، والحياة الأسرية والهوية، من أجل فهم وسائل الإعلام كأشكال ثقافية. نتيجة لذلك تأسست الإثنوغرافيا اليوم جيدا بين العلوم الاجتماعية ومجالاتها البحثية المختلفة، بما في ذلك دراسات الإنترنت والدراسات الاجتماعية للتكنولوجيا والاتصال ودراسات الإعلام.

فنتيجة العمل الميداني الإثنوغرافي هي وصف نظري للأنماط الثقافية التي تتقاطع مع مجالات مختلفة من النشاط الاجتماعي. لذلك فإن المنظور الإثنوغرافي راسخ في التجربة "المتجذرة" للإثنوغرافي ، فضلا عن كونه سياقي وشامل في نطاقه. (Elisenda Ardévol, 2013, p. 2)

لقد صنف Sanday (1979) الإثنوغرافيا إلى ثلاث مدارس للأفكار هي: الكلية أو الشاملة، السيميائية والسلوكية. تقترح المدرسة الشاملة أن البحث الإثنوغرافي يجب أن "يكون عفويا وطبيعيا" ويتطلب "العيش مع المشاركين في الدراسة"، من أجل التعاطف أثناء الانغماس في المجموعة الاجتماعية التي تتم ملاحظتها، حيث يجب أن يصبح عالم الإثنوغرافيا لوحا فارغا ويتصرف مثل الإسفنج، يمتص لغة وثقافة الأفراد من أجل فهم ممارساتهم الاجتماعية والثقافية تماما.

من ناحية أخرى ، جادل Geertz (1998) بأن الإثنوغرافي لا يحتاج إلى التعاطف مع الموضوع، بدلا من ذلك يتعين عليه أن يبحث ويحلل المعايير الرمزية مثل الكلمات والصور والمؤسسات والسلوك، التي تشكل ثقافة المجموعة. (Thi, 2016, p. 44)

أما من منظور المناهج السيميائية والسلوكية ، يبدو أن الإثنوغرافيا عبر الإنترنت قابلة للتطبيق من خلال تفسير واكتساب المعاني من اللغات والثقافة والأعراف، ولا يحتاج

الإثنوغرافي إلى التعاطف مع المشاركين والانغماس جسديا في الأماكن التي يحدث فيها التفاعل البشري. (Thi, 2016, pp. 44- 45)

وهكذا تبقى مسألة الإنغماس والمشاركة من المسائل المثيرة للجدل في الإثنوغرافيا على الإنترنت، بالرغم من أهميتها وأولوية وجودها في الإثنوغرافيا التقليدية.

2. لماذا الإثنوغر افيا على الإنترنت لدراسة المجتمعات الافتراضية؟

إن نقل المنهج الإثنوغرافي لدراسة الإنترنت يطرح العديد من التحديات المنهجية، فما هو الغرض من الإثنوغرافيا على الإنترنت؟ كيف يمكن أن يتم استخدام الأساليب التقليدية في البحث الإثنوغرافي في العمل الميداني عبر الإنترنت؟ وهل هناك طرق أخرى ذات صلة ومطلوبة على وجه التحديد لدراسة المجتمعات الافتراضية عبر الإنترنت؟

لقد أبرزت هذه الأنواع من الأسئلة الحاجة إلى التفكير المنهجي حول خصوصية الوسيط. فالتصنيفات المختلفة مثل الافتراضية، الرابط، الوسائط الفائقة، النتنوغرافيا أو الإثنوغرافيا الرقمية كلها تم اقتراحها للإشارة إلى الخصوصيات التي ينطوي عليها "تبني" الطريقة الإثنوغرافية لأبحاث الإنترنت. (Elisenda Ardévol, 2013, p. 2)

تقول كريستين هاين (2000) بأن الإنترنت كموضوع لدراسة العلوم الاجتماعية تم تنظيرها بطريقتين: إما كشكل ثقافي أو كممارسة ثقافية. فبقدر ما يتعلق الأمر بالشكل الثقافي، تفهم "ثقافات الإنترنت" على أنها دراسة الأشكال الثقافية الخاصة القائمة على الإنترنت. مثال على ذلك يمكن أن يكون تطوير آداب التعامل، والرموز، والقواعد والقيم الخاصة على الإنترنت. بعبارة أخرى، ثقافات الإنترنت هي أشكال ثقافية تظهر على الإنترنت مثل لاعبي العوالم الافتراضية، وفتيات كاميرا الويب، والمتسللين، والمدونين، والمجموعات الأخرى التي يكون احساسها بذواتها وبالانتماء والتنشئة الاجتماعية يتشكل بشكل كبير من خلال الوسائط الرقمية.

أما الإنترنت كممارسة ثقافية، فتقترح هاين - كما يحدث مع الإبداعات الأخرى - أن يتم تحليلها على أنها "قطعة أثرية ثقافية". وهذا يعني دراسة الممارسات التي ليست بالضرورة خاصة بالإنترنت، ولكنها تكتسب أبعادا مختلفة عبر الخط، على سبيل المثال إنشاء مقاطع فيديو على اليوتيوب أو مشاركة الصور على خدمات الإنترنت مثل فليكر Flickr أو الإنستغرام Instagram. (Elisenda Ardévol, 2013, p. 3)

إن ارتباط المستخدم ومشاركته التواصلية يعتبران اثنين من الأنشطة المركزية للغاية للمجتمعات الافتراضية، هذه الأنشطة في حد ذاتها تهيأ المجال للطرق عبر الإنترنت كوسائل عملية لجمع البيانات. فالصفات الدائمة لبعض المحادثات والوسائل التكنولوجية لتسجيل محادثات أخرى يجعل من الممكن جمع البيانات الاجتماعية من المجتمعات الافتراضية. ففي الواقع ، تزايد الأبحاث في مجال دراسات الإنترنت يقدم الدعم لجدوى هذه الأساليب لدراسة ممارسات المجتمعات الافتراضية، سلوكياتهم ومشاعرهم. (Skageby, 2011, p. 410)

لقد حدد Rheingold (1994) سابقا "المجتمعات الافتراضية" بأنها "تجمعات اجتماعية تنشأ من الإنترنت، عندما يواصل عدد كاف من الأفراد تلك المناقشات العامة لفترة كافية، بشعور إنساني كاف، لتشكيل شبكات من العلاقات الشخصية في الفضاء السيبراني". (Airoldi, 2018, p. 3)

إن إجراء بحث على **المجتمعات عبر الإنترنت** يعني دراسة الظواهر المتعلقة على وجه التحديد بالمجتمعات عبر الإنترنت وثقافة الإنترنت. في الدراسات من هذا النوع يعتبر التفاعل/ الاتصال/ الهوية عبر الإنترنت أمرا أساسيا، ويمكن أن يكون منهج البحث عبر الإنترنت هو الوحيد بشكل شرعي. كما تعد الإعدادات عبر الإنترنت جزءا من تعريف الظاهرة قيد الدراسة؛ حيث يتفاعل أفراد المجتمع ويتواصلون بشكل أساسي عبر الاتصال عبر الكمبيوتر (CMC) بحيث يمكن للباحث أن يقرر تركيز انتباهه فقط على الوضعية عبر الإنترنت. (Felice Addeo, 2019, p. 16)

فالعالم الافتراضي هو إنتاج ضخم للخطاب الرقمي، الويكي، الفيديو والرسائل الفورية، والرسائل النصية، وفن الإنترنت والألعاب والعوالم الافتراضية والمواقع الإلكترونية، ورسائل البريد الإلكتروني، والبودكاست والنص التشعبي، واجهات المستخدم الخيالية والرسومية. ببساطة من حيث هذا القياس والحجم يجدر استغلال إيجابيات وعيوب العالم السيبراني التي يقدمها لمجتمع البحث. (Browne, 2011, p. 1)

استنادا لما سبق، يمكن أن نقوم بالمسح وتقسيم هذه المجموعات الإثنوغرافية المتنامية للوسائط الرقمية إلى ثلاثة أقسام واسعة ولكنها متداخلة التصنيفات:

تستكشف **الفئة الأولى** العلاقة بين الوسائط الرقمية وما يمكن أن يسمى السياسة الثقافية لوسائل الإعلام. يبحث هذا العمل في كيفية عمل الهويات الثقافية ، التمثيلات

والتخيلات، يتم إعادة صنعها، تخريبها، توصيلها، ويتم تداولها من خلال الأفراد والجماعات بالتعامل مع التقنيات الرقمية.

تستكشف **الفئة الثانية** الثقافات العامية للوسائط الرقمية، تتضح من خلال ظواهر متناقضة والأنواع الرقمية والمجموعات - المتسللين والمدونات وميمات الإنترنت وبرامج المهاجرين - الذين يتم تنظيم منطقهم بشكل ملحوظ حولها، بالرغم من أنها ليست محددة بالضرورة بخصائص مختارة من الوسائط الرقمية.

الفئة الأخيرة وهو ما سميه النثريات للوسائط الرقمية، تدرس كيف تغذي الوسائط الرقمية وتعكس وتشكل أنواعا أخرى من الممارسات الاجتماعية، مثل التبادل الاقتصادي والمالي الأسواق والعبادة الدينية. (Coleman, 2010, p. 488)

تعكس الفئات الثلاث تعدد أشكال وأنواع المجتمعات الافتراضية، وبالتالي ضرورة تعدد الأساليب الإثنوغرافية لدراستها واحتوائها.

3. الطرق الإثنوغر افية لدراسة المجتمعات الافتراضية

إن التركيز بشكل خاص على العلاقة بين الأسلوب الإثنوغرافي ودراسات الإنترنت، يجعلنا نميز بين ثلاث طرق مختلفة، والتي يمكن تعريفها على أنها: الإثنوغرافيا الافتراضية أو إثنوغرافيا الفضاء السيبراني، الإثنوغرافيا الضامة (المتصلة وغير المتصلة بالإنترنت)، وإثنوغرافيا الإنترنت في الحياة اليومية. لقد تطورت هذه الأساليب المنهجية بالتوازي مع تطورات الإنترنت المختلفة خلال فترات زمنية. تبدأ الأولى من بدايات الإنترنت حتى أواخر التسعينيات، و تتزامن الثانية مع توسع شبكة الويب العالمية، أما الثالثة فتتوافق مع تطوير ما يسمى "بمواقع التواصل الاجتماعي أو مواقع الشبكات الاجتماعية" منذ عام 2005 تقريبا وحتى يومنا هذا. ومع ذلك إذا كانت هناك علاقة وثيقة بين المراحل التكنولوجية وتخصيصات المستخدمين، ووضع استراتيجيات إثنوغرافية مختلفة، فإن الحقيقة هي أنه حتى اليوم تتعايش هذه الأساليب الإثنوغرافية الثلاثة بعدة طرق مختلفة ومختلطة. (Elisenda Ardévol, 2013, p. 3)

1.3 الإثنوغرافيا الافتراضية:

كانت الدراسات التجريبية الأولى التي طبقت العمل الميداني الإثنوغرافي على الإنترنت من إجراء علماء من خلفيات مختلفة في الغالب من علوم الاتصال والدراسات الإعلامية، واستندت إلى إطلاق الاستعارات التي أدت إلى تصور الإنترنت كنوع جديد من الفضاء الاجتماعي. تم تصور هذا "الفضاء السيبراني" على أنه مكان غير مادي حيث يمكن للذات غير المجسدة أن تتفاعل بحرية في تشكيل "مجتمعات افتراضية" حيث الأنماط الاجتماعية والثقافية الجديدة. (Elisenda Ardévol, 2013, pp. 3- 4)

علاوة على ذلك ، في هذه المرحلة المبكرة ، كان الدور الممنوح للتكنولوجيا لتحويل الثقافة والمجتمع في غاية الأهمية. وهكذا اعتبرت الدراسات الاجتماعية الأولى للإنترنت أن خصائص الوسيلة مثل الافتراضية، والمكانية، والتفكك، والانفصال هي ما يشكل أنماطا جديدة للنشاط الاجتماعي.

على نفس المنوال وفي عام 1994 ألهم "هوارد راينجولد" بتسمية "المجتمع الافتراضي"، بناء على خبرته الشخصية في المشاركة الإلكترونية. حيث قال بأن المشاركة على المدى الطويل في هذه المنتديات الإلكترونية تخلق نظاما مشتركا من المعتقدات والقيم والقواعد والسلوكيات الخاصة، مما يخلق إحساسًا جماعيًا بالانتماء والإبداع في نوع جديد من المجتمع، يقوم على المصالح المشتركة والنية الحسنة والتضامن. (Elisenda Ardévol, 2013, p. 4)

مثال ذلك، درس Rokka and Moisander (2009) مجتمعا – بحتا- عبر الإنترنت (افتراضيا)، ووصفاه بأنه "شبكة اجتماعية أو قبيلة من المستهلكين الذين يشاركون في التفاعل عبر الإنترنت (عبر شبكات الكمبيوتر). بحثت دراستهم كيف يمكن للرغبة في تغييرات المحيط و التغييرات البيئية في الممارسات السياحية، أن تجمع الأفراد معا لتشكيل المجتمعات. تم تحديد هذه المجتمعات عن طريق مشاركة المستهلك في المناقشات عبر المنتديات أو غرف الدردشة حول الموضوعات، الاهتمامات أو الخبرات المشتركة، والتي توجد في الفضاء العابر وغير المادي عبر الإنترنت. يتشارك الأعضاء أنماط الحياة، الأذواق المشتركة، الشعور بالانتماء والوعي الجماعي، والطقوس و الممارسات المشتركة والروابط العاطفية وحتى المسؤوليات الأخلاقية المشتركة. هذه الصفات كلها تحدد المجتمع و غالبا ما

يؤدي إلى عدم التجانس الديموغرافي. لقد فسر Moisander الحوارات بين أعضاء المجموعة على أنها نصوص ثقافية، وشرح لنشر المعرفة البيئية من خلال المجتمع عبر الإنترنت. (Whalen, 2017, p. 5)

هذا وقد صاغت شيري توركل (1997) صورة مقنعة ثالثة هي "الهوية الافتراضية". ففي بحثها "الحياة على الشاشة" وبالاعتماد على المجال متعدد المستخدمين (MUD)، شرحت كيف يمكن للأشخاص أداء هويات مختلفة وبديلة عبر الإنترنت.

إن الاتصال بالإنترنت كان مثل "الدخول إلى الفضاء السيبراني"، حيث يمكن للفرد أن يخلق هويات بديلة، والتي صاغ تشكيلها الاجتماعي "المجتمعات الافتراضية"، وبالتالي كان من المغري دراسة هذه المجتمعات كما لو كنا بصدد إجراء بحث استكشافي عن "الثقافة البدائية" كما في الأيام الأولى للأنثروبولوجيا. لذلك تم تصور الإنترنت على أنها قامت بتوليد ثقافة جديدة تماما، وأنها ستقوم بتغيير ثقافتنا بشكل واسع: "عالم سيبيريا الجديد". (Elisenda Ardévol, 2013, p. 4)

وهكذا تمثل الإثنوغرافيا الافتراضية أولى الخطوات لتطبيق المنهج الإثنوغرافي في الفضاء الافتراضي، كما تمثل البدايات للتفكير في دراسة المجتمعات الافتراضية، من خلال ممارستها الثقافية على الشبكة، عبر التموقع فيها وكذا الاعتماد على السياق (الافتراضي) الذي تحدث فيه هذه الممارسات.

2.3 الإثنوغرافيا الضامة:

المنهج الإثنوغرافي الثاني لدراسة التكنولوجيات الرقمية على وجه الخصوص الإنترنت، يمكن أن يسمى "الإثنوغرافيا الضامة". وعلى الرغم من أن مفهوم الإثنوغرافيا الافتراضية الذي صاغته "كريستين هاين" كان سمة مميزة لدراسة إثنوغرافيا الإنترنت، إلا أن كتابا آخرا "الإنترنت: مقاربة إثنوغرافية" بقلم "دانييل ميلر ودون سلاتر" (2000)، فتح فهما مختلفا للعمل الميداني الإثنوغرافي. هاذين الباحثين الذين لديهما خلفية في الثقافة المادية والاقتصاد السياسي الإعلامي والدراسات الاجتماعية للعلوم، تخلا عن فكرة الفضاء السيبراني لصالح دراسة موقعية للإنترنت. كلاهما طمس الفجوة بين العمل الميداني على الخط (متصل بالإنترنت) وخارج الخط (غير متصل بالإنترنت). بدلا من دراسة ثقافات الإنترنت على أنها منفصلة ومستقلة عن العالم الحقيقي، بدأ هؤلاء الباحثين في الحديث عن

الاتصال بالإنترنت / دون الاتصال بالإنترنت، كشكل من أشكال الاعتراف بالروابط المتعددة والعلاقة الوثيقة بين هذين المجالين الاجتماعيين. (Elisenda Ardévol, 2013, p. 6)

ففي دراسة حول العمال المهاجرين البولنديين في المملكة المتحدة ، الذين يعملون في قطاعات الضيافة من خلال مراجعة المجتمعات البولندية على الإنترنت، قررت "جانتا" وزملاؤها استكمال تحليلهم الموضوعي "لمنشورات منتدى" باستعمال المقابلات واستبيان على شبكة الإنترنت. حتى أن "جانتا" قد وصفت الاستبيان على شبكة الإنترنت بأنه "المرحلة الرئيسية لجمع البيانات"، حيث تم تحليل المراجعات والمقابلات من أجل صقل المتغيرات وتطويرها. وهذا ما يبين أن المجتمع الحالي هو المجتمع الواقعي الملموس، وليس بالضرورة المجتمع الافتراضي الذي تم إنشاؤه من خلال منتديات الإنترنت. فتوافر واستخدام المحتوى عبر الإنترنت كان للمساعدة على فهم الحدود المادية بدلا من الحدود الافتراضية ، وهو الأمر الذي يثير تساؤلات حول الاستخدام الحقيقي لإثنوغرافيا المجتمع عبر الإنترنت. في هذه الحالة كان المجتمع موجود بالفعل، ولكن هذه الدراسة لم تقيم كيف اجتمع المهاجرون البولنديون معا لتشكيل مجتمع افتراضي ، وبدلا من ذلك كانت أداة لفهم التجارب الحقيقية للمهاجرين البولنديين في أماكن العمل البدني. (Whalen, 2017, p. 4)

كانت "كريستين هاين" نفسها من أوائل من طبقوا الإثنوغرافيا بشكل انعكاسي؛ فقد قاربت الإثنوغرافيا الافتراضية من خلال ملاحظة المشاركين لصفحات الويب المختلفة وأيضا صلاتهم مع نظام وسائل الإعلام، مبتعدة عن فكرة المجتمع والمكان كمركز لتعريف الموقع الميداني الإثنوغرافي، وفي إطار فهم الموقع كموقع تجريبي حيث يتم إجراء البحث.

في الوقت نفسه وخلال السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين كانت ديمغرافيا الإنترنت والاستخدام يتغيران أيضا، مع نمو كبير في المشاركة لمجموعات ومجتمعات مختلفة في الشبكة، ودمج الإنترنت في الأنشطة اليومية العادية. (Elisenda Ardévol, 2013, p. 6)

بدأ علماء آخرون في القيام بالعمل الميداني "داخل" و"خارج" الشاشة، واستكشاف العلاقات بين التفاعلات عبر الإنترنت (متصلة) وخارجها (غير متصلة). كما لاحظت باكارجيفا أن : "الإنترنت هو المكان المناسب بالضبط حيث يلتقي المتصل عبر الإنترنت وغير المتصل، ودراستهما تعني الحفاظ على رؤية الجانبين في نفس الوقت على حد سواء". وهكذا طمست

الفجوة بين العمل الميداني المتصل بالإنترنت وغير المتصل بها بشكل تدريجي. (Elisenda Ardévol, 2013, p. 7)

إن التمييز بين الحياة عبر الإنترنت وغير المتصلة بالإنترنت والانقسام بين الواقعية والافتراضية هو أكثر فأكثر ضبابية يفقد فائدته. بعبارة أخرى ، الواقع الافتراضي ليس شيئا متميزا عن الجوانب الأخرى للأفعال البشرية والخبرة، ولكنه جزء منها. لقد تم تضمين المساحات الرقمية في ثقافتنا لتغيير الممارسات الاجتماعية. نتيجة لهذه التغييرات ، يعتقد معظم علماء الاجتماع أنه لفهم المجتمع الحالي حقا، من الضروري متابعة الأنشطة الاجتماعية للأشخاص، بما في ذلك الإنترنت وأشكال CMC (الاتصالات عبر الكمبيوتر) الأخرى. وهذا يعني تعديل المواقف المعرفية والمنهجية لإجراء البحوث الاجتماعية وتكييف أساليب البحث الاجتماعي التقليدية مع خصوصيات التفاعلات عبر الإنترنت. (Felice Addeo, 2019, p. 12)

لقد قضى Dwivedi (2009) وقتا في المراقبة السلبية (الكامنة) ودراسة لوحتي رسائل، ليصبح لاحقا مشاركا نشطا فيها. حيث درس بحثه صورة الهند في الوجهة عبر الإنترنت من منظور المستهلك، من خلال التعامل مع اثنين من أكبر وأعلى مجتمعات السفر للسياح المستقلين إلى الهند ترتيبا " Lonely Planet The Thorn Tree و Indiamike.com". أما Hallem و Barth (2011) فقد استخداما كل من الملاحظة بالمشاركة والملاحظة بغير المشاركة، من خلال دراسة بعض مواضيع النشر والمشاركة في أخرى، من أجل فهم تصورات السياحة العلاجية، وخاصة جراحة التجميل في تونس. كما قاموا بالمتابعة الخاصة مع بعض أفراد المجتمع لإجراء جلسات العمليات لمزيد من التحليل. (Whalen, 2017, p. 6)

لقد لاحظت كل من "هاين" و"قارسيا" أن هناك ميل متزايد وحاجة من الإثنوغرافيين عبر الإنترنت لتأخذ في الاعتبار العالم غير المتصل بالإنترنت، لأنه حتى مستخدم الإنترنت الأكثر التزاما لديه حياة وراء الكمبيوتر. هذا التطور يعني أنه لابد من الأخذ في الاعتبار كيف أن أعضاء المجتمعات عبر الإنترنت، الذين يميلون إلى أن يكونوا محور الدراسات الإثنوغرافية لديهم حياة خارجها، وأن الاثنين سيكون لهما آثار على الطرف الآخر. هناك نتيجة مباشرة لهذه الملاحظة، ذلك أن الإنترنت أصبحت بشكل متزايد جزءا لا يتجزأ في حياة

الناس والممارسين لما يمكن التفكير فيه مثل الإثنوغرافيا التقليدية (بمعنى الدراسة الإثنوغرافية للحياة غير الافتراضية والمجتمعات)، سوف تأخذ في الاعتبار - على نحو متزايد- التزامات الأفراد في الحياة على شبكة الإنترنت. فالإثنوغرافيات الأولى على الإنترنت - في وقت سابق- اتجهت إلى التأكيد على مشاركة الناس واندماجهم في عوالم الإنترنت، وإلى الاستبعاد النسبي للعالم خارجها. (Brym, 2012, p. 662)

لقد بدأ العديد من علماء الإثنوغرافيا في التشكيك في ما يسمى بـ "الثنائية الرقمية، وتصور العمل الميداني كمزيج من الملاحظات عبر الاتصال بالإنترنت وعدم الاتصال بها، وشدد آخرون على الطابع متعدد المواقع والمتنقل بالضرورة للإثنوغرافيا على الإنترنت. ومع ذلك، كان التقدم في نظرية المعرفة في المجال الرقمي نادرا، حيث تعاملت معظم المناهج الإثنوغرافية للإنترنت بشكل حصري مع مواقع (الويب) المعزولة أو المترابطة ومجتمعات مستخدميها. كما لاحظ كالياندرو (2017) مؤخرا في مجلة "الإثنوغرافيا المعاصرة"أن مثل هذا المنهج المحلي والمتمحور حول البيئة الرقمية لا يمكن اعتباره أمرا مفروغا منه بعد الآن. (Airoldi, 2018, p. 3)

ثم قام مؤلفون مثل Leander و McKim (2003) ولاحقا Hine (2007)بتطوير مفهوم "الإثنوغرافيا الضامة" لمعالجة مسألة تكامل البحث بين حالات الاتصال بالإنترنت وعدم الاتصال بها. كما تبنى فيلدز وكافاي (2008) هذه الفكرة للتركيز على كيفية انتشار خبرة اللعب لدى شبكة من الشباب في نادي ما بعد المدرسة، حيث يشاركون في نفس الوقت في بيئة افتراضية متعددة اللاعبين، وذلك باستخدام الملاحظة بالمشاركة المتصلة بالإنترنت وغير المتصلة بها، المقابلات وتسجيلات الفيديو وجمع بيانات التفاعل الاجتماعي عبر الإنترنت وخارجها. (خلالفة، 2021، صفحة 307)

إن الإثنوغرافيا الضامة ليست فقط مسألة خلط طرق وجمع بين استراتيجيات عبر الاتصال بالإنترنت وعدم الاتصال بها، ولكنها أيضا إنشاء موقع ميداني كشبكة غير متجانسة، تتشكل من العلاقات الاجتماعية للمشاركين وصلاتهم بالأشياء المادية والرقمية والمواقع المادية أو الافتراضية.

كما يرى Hastrup و Olwig أنه بدلا من بالنظر إلى المجال الإثنوغرافي باعتباره "موقعا"، من الأفضل فهمه كمجموعة من العلاقات، مع التركيز على الروابط بين المواقع المتعددة، حيث ينخراط الفاعلون في النشاط. (Elisenda Ardévol, 2013, p. 7)

وهكذا بقدر ما تتجاوز "الإثنوغرافيا الضامة" بعض مشكلات الفضاء الافتراضي ودراسة المجتمعات الافتراضية، بقدر ما تضع الباحث أمام تحدي تطبيق أسلوبين من البحث يجمع فيهما ما بين التقليدي (ما قبل الافتراضي) وبين الجديد (الافتراضي)، وهو الأمر ليس بالهين، ولا بالسهولة والمرونة الكافية عند الممارسة.

3.3 الإنترنت في الممارسات اليومية والإثنوغر افيا الإعلامية:

لقد تطور المشهد التكنولوجي ولم يعد يتعلق فقط بأجهزة الكمبيوتر والإنترنت والمنصات، الشبكات اللاسلكية وتطبيقات الهاتف المحمول والفيديو، لوحات التحكم في الألعاب وما إلى ذلك، فكلها أصبحت مترابطة؛ فيمكننا القول أن نظامنا البيئي التواصلي قد تحول إلى نظام رقمي بالكامل تقريبا. فالاستخدام المتزامن لوسائل الإعلام أصبح سمة منتظمة للحياة اليومية، ونقلا عن "مارك دوز": "أصبحت وسائل الإعلام لا تنفصل عنا، لدرجة أننا لم نعد نعيش مع وسائل الإعلام، ولكن في وسائل الإعلام". (Elisenda Ardévol, 2013, pp. 7- 8)

إن الانتقال إلى الإثنوغرافيا حدث في الدراسات الإعلامية عندما بدأ الباحثون في ملاحظة خبرة وسائل الإعلام في السياقات اليومية، بحثا عن بدائل لأبحاث العلوم الاجتماعية التقليدية حول تأثيرات وسائل الإعلام. وهكذا تتلاقى الإثنوغرافيا الإعلامية والإثنوغرافيا على الإنترنت في وضع التركيز على الممارسات اليومية". (Elisenda Ardévol, 2013, p. 8)

إن الغرض المحدد من الإثنوغرافيا على الإنترنت هو دراسة المساحات الاجتماعية عبر الإنترنت كما هو محدد سابقا. حيث لا يقتصر الأمر على تحليل الإجراء الفردي والمتقطع لنشر الرسائل عبرها، ولكنه يستكشف التفاعلات المستمرة والمتكررة التي يتم إجراؤها عن طريق قنوات وتقنيات الكمبيوتر من خلال تحليل الاتصال عبر الإنترنت. فيمكن أن يتخذ هذا الاتصال العديد من الأشكال، بما في ذلك النصوص، وكذلك المعلومات الصوتية والمعلومات المرئية والمعلومات السمعية والبصرية اعتمادا على موضوعات البحث وأهدافه.

ويمكن للمجتمعات قيد التحليل أن تتخذ أشكال المدونات والمنتديات والشبكات الاجتماعية والمحادثات والقوائم البريدية ومساحات اللعب والعوالم الافتراضية ومواقع الويكي وما إلى ذلك. (Felice Addeo, 2019, p. 14)

أما الإثنوغرافيا الإعلامية فتتضمن دراسة الممارسات الإعلامية التي تتجاوز المعايير التي حددتها الافتراضات النظرية للإنتاج الثقافي، القائمة على تداول المنتجات الإعلامية. حيث يمكن فهم ممارسات وسائل الإعلام على أنها مجموعة واسعة من الممارسات معظمها مع،حول ومن خلال التكنولوجيات الرقمية المتعلقة بالعمليات الإبداعية المنفذة من قبل الأفراد والجماعات والحكومات والشركات عبر الوطنية وغيرها من الوكلاء الاجتماعيين بأهداف وأغراض مختلفة. فكما لاحظ "كولمان" أن الهدف من إثنوغرافيا الإعلام هو إذن استكشاف "العلاقات المعقدة بين الممارسات المحلية والآثار العالمية لوسائل الإعلام الرقمية، وأهميتها المادية وسياستها، وتواجدها البسيط والعميق في الحياة الثقافية وأنماط الاتصال". (Elisenda Ardévol, 2013, pp. 8- 9)

ويعد هذا النوع الأكثر عمقا وتعقيدا، مقارنة بالنوعين السابقين لتداخل العناصر المشكلة له، والجامعة بين وسائل الإعلام من جهة، والعالم الرقمي بمكوناته الضخمة والواسعة من جهة أخرى.

خاتمة:

تعتبر الإثنوغرافيا على الإنترنت امتدادا للمنهج الإثنوغرافي التقليدي، ولكنها كيفت نفسها لتنسجم مع طبيعة المجتمعات على الإنترنت أو المجتمعات الافتراضية، وذلك من خلال الحفاظ على أساسيات المنهج الإثنوغرافي من ملاحظة ومعايشة للمبحوث في السياق الطبيعي والثقافي الذي يتواجد فيه، والذي أصبح يتم في بيئة افتراضية متعددة المواقع، مع مجتمعات تجمعها مصالح وغايات مشتركة، بهويات حقيقية وأخرى مزيفة.

لقد تمكنت الإثنوغرافيا على الإنترنت من فتح آفاق جديدة للبحث في العوالم الافتراضية، مقارنة بالمناهج الكمية التي أثبتت قصورها في العديد من المحطات، إلا أنها تواجه بعض الصعوبات الناجمة من تعقيدات البيئة الافتراضية في حد ذاتها، ومن كيفيات الممارسة التي تتراوح

بين الأخذ بعين الاعتبار العالم المادي الواقعي أو بين تجاوزه، وذلك من خلال التطورات التي عرفها هذا المنهج، هذه الأخيرة ارتبطت بتطور الممارسات الاتصالية والثقافية على الشبكة العنكبوتية.

بالرغم من الصعوبات المذكورة آنفا، تبقى الإثنوغرافيا على الإنترنت أحد أنسب المناهج لدراسة المجتمعات الافتراضية والبحث فيها، باعتبارها الأكثر تكيفا ومرونة في الانسجام والتعامل مع هذه المجتمعات.

قائمة المراجع:

-Alan Brym .(2012) .*Social Research Methods*) .(4) Oxford University Press ،UK.

-Angela Delli Paoli,Maria Esposito, Maria Ylenia Bolcato Felice Addeo .(2019 ,12) .Doing Social Research on Online Communities: The Benefits of Netnography .*Athens Journal of Social Sciences*.(01)*07*

-E. Gabriella Coleman .(2010) .Ethnographic Approaches to Digital Media .*The Annual Review of Anthropology*.

-Edgar Gómez-Cruz Elisenda Ardévol .(2013) .Digital ethnography and Media Practices) .Fabienne Darling-Wolf ،*The International Encyclopedia of Media Studies.7*

-Elizabeth Whalen .(2017) .A Changing Netnographic Landscape: Is There a Place for Online Ethnography in Hospitality and Tourism ?Travel and Tourism Research Association, *Advancing Tourism Research Globally* .

-Lip- Sam Thi .(2016 ,11) .Ethnography in the Cyberspace: Problems and Prospects .*International Journal of Information System and Engineering*.(02)*4*

-Liz Browne .(2011) .Cyber- Ethnography: The EmergingResearch Approach for 21st Century research investigation .Liz Browne Elizabeth Keeley, Oxford Brookes University, *Handbook of Research on Transformative Online Education and Liberation: Models for Social Equality* .United Kingdom,OX9 2AT.

-Massimo Airoldi .(2018) .Ethnography and the digital fields of social media .*International Journal of Social Research Methodology*.(06)*21*

-Skageby, J. (2011). Online Ethnographic Methods: Towards Qualitative Understanding of Virtual Community Practices. In B. K. Daniel, *Handbook of Research on Methods and Techniques for Studying Virtual Communities: Paradigms and Phenomena.*

- ثريا أحمد البدوي. (2015). *مستخدم الإنترنت"قراءة في نظريات الإعلام الجديد ومناهجه"* . القاهرة: عالم الكتاب.
- زينب خلالفة. (03, 2021). الإثنوغرافيا من العالم الواقعي إلى العالم الافتراضي. *مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي، 08*(01).